أطوار الوحدة العربية

المفاوضات بين العرب والحلفاء

للأســـتاذ نسيب سعيد

قلت لك فى حديثى الماضى أن الحالة بلغت أشدها من التوتر والجفاء بين العرب والترك ، مما ينذر بشر مستطير ، بل بثورة عربية كبرى ، وغضبة مضرية جبارة ... وأقول لك اليوم إن البريطانيين ما كانوا غافلين عن كل ذلك ، وعما هنالك أيضاً من نضال داخلى ، ومشادة سرية بين « الحسين » و « الاتحاديين » ذاع خبرها واشتهر أمرها

وكان اللورد « كتشنر » ممتمد بريطانيا العظمى فى مصر قبيل الحرب الماضية ، ووزير حربيتها في إبانها ، أول سياسى بريطانى عمل للتقرب بين العرب والحلفاء ، وخاصة بين « آل الحسين » والانجليز ، وسعى لإنشاء صلات ودية منهم وبين حكومته ، أملا فى اجتذابهم واكتسابهم بعد ما اكتسب الألمان الترك

فى أواخر شهر سبتمبر (أيلول) عام ١٩١٤ وصل إلى مكة تاجر مصرى من حى الجمالية اسمه على أفندى أصفر يحمل إلى الشريف عبد الله (أمير شرق الأردن اليوم) من المستر « ستورس » السكرتير الشرقى لدار الحماية كتابا خاصا عن الصداقة العربية — البريطانية ، فلم يطلع الأمير عبد الله والده « الحسين » على الكتاب بل أكرم الضيف المصرى وصرفه بسلام . غير أن الرسول عاد بعد أسبوعين يحمل كتابا آخر من المستر «ستورس» نفسه كله ود وصداقة وإخلاص ، فأطلع الأمير حينئذ والده على الكتابين ، وبحثا فى الأمر مليا

وفى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩١٤ عاد السيد على المصرى إلى الحجاز يحمل كتابا ثالثاً من المستر « ستورس » كان السبب فى ابتداء المفاوضات والمكاتبات بين العرب والحلفاء بصورة عامة ، وبين الحسين والانجليز بصورة خاصة

وفى شهر أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩١٥ عقد « مؤتمر الطائف » بين الحسين وأنجاله ، وفيه قرروا إعلان الثورة العربية بالاتفاق مع البريطانيين على أساس استقلال العرب وتحريرهم ووحدتهم . ومما قرروه فى هذا المؤتمر أيضاً أن يعود الأمير فيصل (ملك العراق بعد ذلك رحمه الله) إلى الشام فيتصل برجال العرب فيها ، وكانوا يفكرون فى أن تبدأ الثورة هنا فى ديار الشام فيدرس التدابير ويضع الخطط لتكون عامة تشمل الحجاز والشام والعراق ، وأن يسافر الأمير على إلى المدينة ويقيم فيها تحت ستار قيادة المتطوعين ، فيتفق مع شيوخ القبائل وينظم أمرهم استعداداً ليوم الثورة ، وأن يتولى الأمير عبد الله تنظيم قبائل الطائف والقبائل المجاورة لمكة ، وبعد معدات العمل ، وأن يشترك كذلك مع والده فى المكاتبات والمفاوضات التى تدور مع البريطانيين . ولما رجعوا من الطائف انصرف كل منهم إلى إتمام ما اختص به من المهمات

وبينما كانت المفاوضات والمكاتبات السرية تدور بين دار الحماية البريطانية بمصر وشريف مكة بالحجاز ، كان المستر (ستورس) يتصل بأقطاب حزب اللامركزية العربى فى القاهرة ، ويباحثهم فى « القضية العربية » ، ويدعوهم إلى زيارته فى قصر الدوبارة ويسألهم عن خططهم وبرامجهم فيما لو دخلت تركيا الحرب ، وماذا يكون موقفهم لو عمل الحلفاء على استقلال بلاد العرب ، وهل يستطيع أبناء العروبة مؤازرتهم والنهوض بأعباء استقلالهم ، فأجابوه :

« إن العرب يتمنون استقلال وطنهم وإعادة غابر مجدهم وعزهم إذا كان لا بد من انهيار دولة الترك . وهم على استعداد تام لتأييد كل سانحة وبارقة ترمى إلى استقلال العربي مهما كان شأنها ... »

ولقد دارت مكاتبات سرية يومئذ بين الشريف حسين باسم العرب ، والسر هنرى مكماهون نائب جلالة الملك بمصر باسم بريطانيا العظمى لأجل إعلان الثورة أدت إلى الاتفاق على البنود الخمسة التالية التى تمت الموافقة عليها فى الشهر الأول من عام ١٩١٦ وهى :

أولا : تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلال فى داخليتها وخارجيتها ، حدودها شرقاً : خليج فارس ، وغرباً : بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض ، وشمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعه مع الدجلة إلى مصبهما فى خليج فارس ماعدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود . وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التى أجرتها بريطانيا العظمى مع أى شخص كان من العرب فى داخل هذه الحدود بأنها تحل محلها فى رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع أربابها أمراء كانوا أو من الأفراد

ثانياً : تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى تدخل كان وبأى صورة كانت فى داخليتها ، وبسلامة حدودها البرية والبحرية من كل تعد كان أياً كان الشكل ، حتى ولو وقعت فتنة داخلية من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء ، تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة ، وهذه المساعدة فى الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة أى إلى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية

ثالثاً: تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى إلى أن تتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية . ويعين من جانب بريطانيا العظمى فى مقابل تلك المشارفة مبلغ من المال يراعى فيه حالة الحكومة العربية

رابعاً : تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج إليه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة والذخائر والمال مدة الحرب

خامساً : تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو من نقطة مناسبة فى تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها »

وظل الشريف حسين حتى بعد هذا الاتفاق الذى تم فى شهر يناير (كانون الثانى) من سنة ١٩١٦ يعد ويسوف البريطانيين ، ويعد العدة سراً للعمل الخطير ، ويتأهب للوثوب ...

وكان قد كتب إلى المندوب السامى فى مصر كتاباً يعلمه بذلك فأجابه السر (أرثور مكماهون) فى كتاب مؤرخ فى ١٠ مارس (أذار) عام ١٩١٦ (٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٤) يقول فيه : « قد تلقينا رقيمكم المؤرخ فى ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ عن يد رسولكم الأمين . وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التى تنوون اتخاذها وترونها موافقة للأحوال الحاضرة . إن حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى تجيزها . ويسرنى أن أخبركم بأن حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم ، وإن كل شىء رغبتم بالإسراع فيه وفى إرساله هو مرسل مع رسولكم حامل هذا . وستحضر الأشياء الباقية بكل سرعة ممكنة . فتبقى فى بور سودان تحت أمركم إلى حين ابتداء الحركة وإعلامنا رسمياً بها . وقد انتهت إلينا إشاعات مؤداها أن أعداءنا باذلون الجهد فى أعمال السفن ليبثوا بواسطتها الألغام فى البحر الأحمر ، لإلحاق الضرر بمصالحنا هناك . فنرجوكم أن تسرعوا بإخبارنا إذا تحقق ذلك لديكم »

ومرت أربعة أشهر على هذا الاتفاق العربى ـ البريطانى قبل أن يطلق الشريف حسين بندقية من قصر الإمارة بمكة . وكان الحجاز كما قلنا يعانى من شدة الحرب وأهوالها أكثر من سواه من الأقطار العربية . فسدت أبواب البحر ، وانقطع الحجيج ، ونفد القليل مما كان فى البلاد من زاد ، فضجت الناس ، وهلك مئات من الجوع ، وقد قال « الحسين » إنه ظل هو وأهل منزله سنتين يأكلون الدخن

مرت الأربعة أشهر وكان قد أصبح الأمير فيصل فى مأمن من الأعداء ، ولديه فوق ذلك من مالهم وسلاحهم ما لا يستهان به . وكانت الذخائر والسلاح والمال بدأت ترد عن طريق (بور سودان) من المصدر الذى أشار إليه المندوب السامى البريطانى فى كتابه

فتوكل الشريف حسين على الله ، ونهض فى صباح اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ ٢ يونيو (حزيران) عام ١٩١٦ قبل الفجر وبيده بندقية أطلقها طلقة واحدة كان لدويها صدى فى جدة والطائف والمدينة ، بل فى سائر أنحاء العالم العربى

فأعلنت الثورة فى مكة وجدة فى اليوم الأول ، وفى الطائف والمدينة فى اليوم الثانى ، وكان ما لدى العرب من القوات العسكرية موزعة متأهبة كلها ، فحاصر الأمير زيد بجنوده قلعة « اجياد » بمكة وهجم الأمير عبد الله على الطائف ، وكان الشريف محسن قائداً فى جدة ، والأميران على وفيصل ، وقد خرجا من المدينة بجمعان العربان ليحاصرا الترك فيها